

# كلنا خلقنا من نفس واحدة

<"xml encoding="UTF-8?>



تشهد البشرية صوراً من العدوان والصراع في ما بينها، في دوائر واسعة كالحروب العالمية، وفي دوائر محدودة كنهب أموال اليتامي والإرث من قبل الأقرباء والأوصياء، وكظم الزوجة من قبل الزوج. وقد عالجت عدة آيات من سورة النساء في مبتدئها بعض صور العدوان والصراع في الدوائر المحدودة، ولعل الآية الأولى من السورة جاءت بمتابة التمهيد لتلك المعالجات من خلال القانون العام الذي تقدمه. قال تعالى: (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء: 1].

واقع الحياة يعكس وجود التنوع الإنساني من نواح عديدة، بما فيها التعدد الديني والقومي والعرقي واللسانى.. فهل يراد لهذا التنوع أن يتحول إلى عنصر تأزيم وصراع واقتتال؟ التاريخ على مر العصور يؤكد على أن مقومات التنوع تحول عند الناس إلى أسباب للتعصب وبالتالي تجر إلى وقوع الصراعات فيما بينهم. وهذا يخالف الإرادة الإلهية لهذا النوع: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَاوَرُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَبِيرٌ) [الحجرات: 13].

## التقوى والصراع:

في المنطق القرآني فإن السبيل الأفضل لكل الناس - وليس للمسلمين فحسب - لتجنب ذلك هو تقوى الله.. وهذا ما نلاحظه من خلال ربط الموضوع بالتقوى في الآيتين. مع العلم بأن إدراك ضرورة اعتماد التقوى كوسيلة لتجنب الصراعات وتحقيق (التعارف) بدلاً من (التصاق) يمكن أن يصل إليه (الناس) من خلال العقل، وبالتالي فهو عنصر مشترك بين (الناس) جميعاً، وإن اختلفوا في أديانهم ومعتقداتهم وقومياتهم، ولا يخص المسلمين فحسب.. فلعنصر التقوى حضور عند النصارى واليهود وحتى عند الهندوس والبوذيين وغيرهم، وهي إن اختلفت في بعض تفاصيلها، ولكنها تشتراك في بعض العناوين العامة. والأمر الآخر الذي يدل عليه العقل هو فرعية كل عناوين الاختلاف بين (الناس) في مقابل أصل انتماهم إلى أب واحد (آدم) وأم واحدة (حواء).

## لم التعصب؟

فإذا كان التعصب قائماً على القومية مثلاً، فبقليل من التفكير ستجد أن أصل كل القوميات شخص واحد.. فانتماء الناس إلى بعضهم البعض في الأصل متحقق. وإذا كان التعصب قائماً مثلاً على الانتماء الديني الباعث على التقاتل والتناحر، فإن الخالق واحد وإن اختلف الناس (رجالاً ونساءً وبتنوعهم) في أسمائه وتصورهم له وغير ذلك من الخصوصيات.. وهكذا بالنسبة إلى سائر العناوين التي تبعث الناس لالغاء بعضهم البعض بالقوة.

## آدم وحواء:

اختلف المفسرون في المراد من (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)، فبعضهم تماشى مع النص التوراتي وبعض مرويات المسلمين من أن المراد هو خلق حواء من ضلع آدم، وفي التوراة: (فَأَوْقَعَ الرَّبُّ إِلَهُ سَبَاتَا عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَأَخْذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ إِلَهُ الْمُضْلَعَ الَّتِي أَخْذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ). فَقَالَ آدَمُ هَذِهِ الْآنِ عَظِيمٌ مِنْ عَظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تَدْعُنِي امْرَأَةٌ لَأَنَّهَا مِنْ امْرَأَةِ أَخْذَتْ). وفي مرويات المسلمين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أوج شئ في الصلع أعلاه فإن ذهبته تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أوج، فاستوصوا بالنساء). والبعض أَوْلَ الأَحَادِيثِ وَرَفَضَ الْأَخْذَ بِظَاهِرِهَا، وَالبعْضُ طَرَحَ الأَحَادِيثَ وَرَفَضَهَا.. أَمَّا الْآيَةُ فَلَا دَلَالَةً وَاضْحَى فِيهَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

## حقيقة واحدة:

ولربما كان المراد من الآية أن هناك حقيقة واحدة للنوع البشري، وآدم وحواء من نفس هذه الحقيقة. لاحظ أن الآية ما قالت: (خلق نفساً واحدة، وخلق منها زوجها، وخلقكم وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً) لكي نفهم أن المراد هو تسلسل الوجود البشري في المسار التاريخي، كي نقول خلق آدم ثم خلق حواء من آدم (من الصلع أو من غيره) ثم خلق الامتداد منهما. بل قالت: (خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) وكأن الآية تريد القول أن حقيقة الذكر والأنثى واحدة، ومن خلال هذا التنوع الجنسي تتحقق الامتداد في الوجود البشري (وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً). وبالتالي فلربما كانت رسالة الآية هكذا: يا أيها الناس جميعاً باختلاف أجناسكم (ذكوراً وإناثاً) وباختلاف أعراقكم وقومياتكم وألسنتكم وأديانكم، كلكم بأعدادكم الضخمة وتنوعاتكم الكبيرة، كلكم يرجع إلى (نفس واحدة) أي حقيقة واحدة.. فلم هذا الصراع والإقصاء لبعضكم البعض وعدم التعايش؟

## العلاقة الرحمية:

ثم تضيق الآية دائرة الصراع، وهي الصراعات التي تدور بين الأرحام.. ألسنتم تُقسمون وتنشدون بعضكم البعض بالأرحام، كما تفعلون ذلك بالله؟ فإذا كانت الرحم بهذا المستوى من المكانة والأهمية عندكم، فلم العداون على بعضكم البعض أيها الأرحام؟ إن المطلوب أولاً أن تتقوا الله، فتقى الله يجب أن يكون العامل الأكثر فاعلية في البين، لأن الله هو العليم بكل شيء، والقادر على كل شيء، وسيحاسب على كل شيء. وإن أضفتتم إلى ذلك حكم عقولكم، ستتجدونها تلزمكم بحسن التعامل مع الآخر من الرحم الذي أنتم تُنشدون به بعضكم البعض وتعصبون له.. أو أن المطلوب أن تتقوا الأرحام كما تتقون الله، وفق ما يراه بعض المفسرين.. والنتيجة - في نهاية المطاف - واحدة على التفسيرين.